

مقدمة لدراسة عصر انحطاط الطب العربي

وبنت الحارث
كلية الطب - جامعة دمشق

وهذا التقسيم لا يعني بطبيعة الحال وجود فواصل حادة بين عصر وعصر .. مثل ذلك مثل التقسيم التاريخي في أي حقل من حقول دراسة التاريخ .. العام أو التاريخ الاجتماعي أو الحضاري أو العلمي .

كما أن هذا التقسيم قد يخضع لآراء المؤرخ الخاصة .. فإذا أحب أحدهم أن يجعل العصور التاريخية ثلاثة فرب مؤرخ آخر يجعلها أربعة أو خمسة وذلك بأن يقسم أحد العصور الى قسمين : فعصر الازدهار والتأليف على سبيل المثال قد يصبح عصرين : الاول : عصر الازدهار . والثاني .. عصر الموسوعات والمؤلفات الكبرى أو العصر الذهبي .. وهكذا يختلف المؤرخون في هذا النطاق المشروع والمعقول .

لقد اصطلح الدارسون على تقسيم العصور التي مر بها تطور وازدهار الطب في الدولة العربية الى عصور ثلاثة :

- أولها عصر الترجمة والتمثل .
- وثانيها عصر الازدهار والتأليف .
- وثالثها عصر الانحطاط .

وهذا التقسيم ان هو الا لتسهيل الدراسة على المبتدئين وذلك كما تقسم عصور الأدب الى عصر الأدب الجاهلي ، وعصر صدر الاسلام والعصر الأموي الى آخر ذلك التقسيم المعروف . أو كما تقسم عصور التاريخ الى عصور قديمة ومتوسطة وحديثة .

★ ألفت هذه المحاضرة في (أسبوع) العلم
التاسع عشر ١٩٧٩ .

الضرورة لهذا الموضوع تذكر القدر الكافي الذي يتيح للمؤرخ أن يكون فكرة كافية عن هذه القضية ؟

وهل أتيح للمؤرخين أن يدرسوا ويحققوا المخطوطات الطبية التي تلقي ضوءاً على تقدم المعرفة الطبية في شتى هذه العصور ؟

انني أسمح لنفسي - في حضرتكم - أن أقول انني أتصور أن الامور ستبدو غير ما هي عليه اليوم .. وذلك بعد أن ننتهي من تحقيق ودراسة المخطوطات التي لم يتح لها بعد أن ترى النور وأسمح لنفسي كذلك بأن أحاول أن أشرح وجهة نظري هذه .

ان اطلاع المؤلفين الغربيين ومؤرخي العلوم الاوروبيين والمستشرقين على التراث العربي الطبي جاء من أحد طريقتين .. أما قراءتهم للمصادر العربية التي تطرقت الى موضوع تاريخ الطب العربي وتراجم الاطباء العرب . وأما اطلاعهم على بعض الكتب الطبية العربية على شكل مخطوطات .. وقعت صدفة في أيدي بعض الأطباء الاوروبيين وذلك في بداية الامر .. ثم ازداد اهتمام الغربيين بالتراث العلمي العربي فأصبحوا يبحثون عن المخطوطات من مختلف المكتبات كما أصبحوا يترجمون كتب المراجع التي تعنيهم .

ولعل البداية ليست بعيدة عنا كثيراً . ولا أراني مضطراً الى ذكر أكثر من مثليين اثنين للكتاب الذين جاؤوا في الطليعة .. فوستفلد ، ولوكلين .. لكي أدلل على أن الأبحاث الجادة كانت في الثلث الثاني من القرن الماضي .

وثمة اختلاف آخر .. يقسم أيضاً بالموضوعية . ويخضع للآراء الخاصة للمؤرخ . وهو المتعلق بتحديد بدايات ونهايات هذه العصور . وهذه ظاهرة معروفة أيضاً في علم التاريخ أجد نفسي غير مضطر للتطرق اليها وذلك من باب الابتعاد عن الخوض في المسلمات والبد依يات .

وفي كل مرة أكون فيها مضطراً الى مناقشة هذه المسألة وأعني بها مسألة تقسيم العصور في مجال تاريخ الطب العربي .. أجدني أواجه سؤالاً مثيراً .. لا أظن أن مؤرخ الأدب العربي أو مؤرخ الحضارة العربية يواجه مثله .. هذا السؤال يلح علي دائماً في كل عام دراسي .. أواجه فيه طلاب مادة « تاريخ الطب » في كلية الطب بجامعة دمشق .. ويدفعني أن أثيره أمام هذا الحفل الكريم ★ .. من كبار المؤرخين والمفكرين والباحثين .. هذا السؤال هو التالي ..

هل تسمح لنا معلوماتنا عن التراث الطبي العربي . بأن نزعّم أننا نعرف الكثير عن هذا الموضوع ؟ وبمعنى آخر .. هل يكفي ما توفر لدينا من اطلاع على تاريخ الطب العربي ، أن يكون المؤرخ أو مؤرخ العلوم قادراً على وضع هذا التصنيف بدقة .. ؟

وبالتالي .. هل يظلّ هذا التقسيم جديراً .. بعد خمسين عاماً .. اذا زادت معلوماتنا عن هذه المسألة التي يخيل إلي أننا ما نزال نلمس أطرافها ؟

هل كتب التراجم وغيرها من مصادر المعرفة

وان نظرة بسيطة الى كتابي هذين الرائدتين الكبيرين في حقل تاريخ الطب العربي ترينا اليوم كيف تجاوزت المعرفة ما كتبه هذان الرجلان العظيمان تجاوزاً ملحوظاً .

واذا كان هذا من طبيعة الأمور .. أفلا يحق لي أن أتساءل .. الى أي مدى أصبحت كنوز المخطوطات الطبية العربية متوفرة للباحثين ؟ وما هو عدد الباحثين : من مؤرخين وأطباء .. الذين ينصرفون فعلاً الى هذا العمل المهم : وهو تحقيق ودراسة هذه الثورة الهائلة ؟

واذا توفر لنا البعض .. ألا يحق لي أن أسأل .. ما هو مدى تفرغ هؤلاء للبحث الجاد ..؟ وما هي نسبة المحققين المدربين والمنصرفين الى التحقيق ؟ وما هي نسبة الهواة ؟ هواة الاطلاع على هذه المخطوطات ودراستها ؟ دراسة الهاوي وليس دراسة المحقق واذا توفر فعلاً بعض الراغبين في الدراسة الحققة .. فهل أتاحَت جامعاتنا ومعاهدنا ومؤسساتنا المعنية لهؤلاء فرصة التفرغ الحق . والانصراف الجدي الى هذا العمل ؟

بل ما هو مدى اهتمام الجامعات والمعاهد والمؤسسات والوزارات المختلفة بالذات عموماً ؟ وماذا فعلت له ؟ وهل أعدت له الأطر اللازمة .. التي تستطيع حفظ هذه المخطوطات وتصنيفها وتبويبها وتصويرها ووضعها بين أيدي الباحثين .. والطلبة . والعلماء ؟ وهل أُمِد الطلبة في الكليات المختلفة لمثل هذه الرسالة : التي أصبحت ضرورية من وجهة النظر العلمية أو التاريخية أو القومية أو انسانية .. ؟

لا أظن أنني مضطر أن أكلف نفسي غناء الاجابة عن هذه الأسئلة ولا أظن أن أحدا يجد نفسه مدعواً للاجابة عنها . لأن الجواب عنها جميعاً يظل واضحاً .. ومؤسفاً .. باتفاق الجميع . ولكن النتيجة التي يمكن أن نخلص اليها هي التالية .. انه على الرغم من قلة ما اكتشف في القرن الاخير في حقل تاريخ الطب من معلومات .. فقد أصبح كتاب لوكليز مثلاً ، قديماً . وأصبحت قيمته تاريخية .. وان معلوماتنا اليوم قد تجاوزته كثيراً .. كل هذا على الرغم من أنه لم تقم المؤسسات بواجبها في كشف هذه الكنوز الضرورية لالقاء ضوء كاف على حقيقة الامور . وعلى الرغم من أن الأفراد .. كانت جهودهم في الغالب فردية .. وكانت اهتماماتهم تركز تحت نير التضحيات الشخصية ، وكان انصرافهم في غالب الأمر جزئياً ، وعلى الرغم من قلة عدد المهتمين .

وربما كان من المفيد أن أعطي مثلاً آخر .. فكتاب بروكلمان الشهير الذي كان معجزة في عصره . ألم يكن صاحبه مضطراً الى أن يكتب له ذيلاً في حجم يزيد عن حجم الكتاب الاصلي .. هذا في حياة بروكلمان أما الآن وبعد ظهور كتاب سزكين .. ألا نرى مدى التجاوز الذي حققه سزكين في كتابه . ألا نلنس الفرق النوعي بين الكتائين ؟

ومثل أخير .. في تاريخ الرياضيات عند العرب . هل تصلح الاحكام ، التي كانت تطلق على مستوى ارتقاء الرياضيات العربية قبل عشرة

أعوام ، اذا قلناها اليوم بعد اكتشاف الاستاذ
رشدي راشد في هذا الحقل ؟

انني أكتفي بهذه الأمثلة .. المثل الاول ..
جئت به من حقل تاريخ الطب .. والمثل الثاني
من حقل تاريخ التراث العربي المكتوب .. والمثل
الثالث من حقل تاريخ الرياضيات العربية ..

أردت من وراء هذه الأمثلة الواضحة
الدلالة ، أن أقول انه على الرغم من قلة الجهود ،
واقصرها فان القليل الذي جرى .. تجاوز
معلومات القرن الماضي كثيراً .. بل وقلب بعض
المفاهيم رأساً على عقب ..

فكيف ستكون الحال في المستقبل ؟ كيف
تتبدى لنا الامور اذا زادت معرفتنا بهذه الكنوز
المهملة حتى الآن أو اذا انصرف الى دراسة
التراث عدد أكبر من الباحثين ؟ أو اذا قيض الله
لكنوز التراث عند هذه الأمة مؤسسات وجهات
رسمية قادرة على القيام بدور دراسته وإحيائه
والاستفادة منه ، بل بعثه ووضعه موضع التناول
لكل من يريد المعرفة ؟ ..

اذا صح هذا الاستنتاج فهل ستكون نظرتنا
الى مجمل عصور تطور وازدهار الطب العربي
هي نفسها نظرتنا اليوم ؟

وهل ستكون معرفتنا في المستقبل قادرة
على الاجابة عن الاسئلة العديدة التي أحب أن
أطرحها على حضراتكم ؟ والتي أكتفي اليوم بذكر
بعضها راجياً أن تتيح لي الايام أن أواصل هذه
المهمة في المستقبل .. بأن أضع بين أيدي السادة
المؤرخين هذه الاسئلة التي تواجه مؤرخي العلوم

ومؤرخي الطب بشكل خاص ؟

أولاً - هل يبدأ حقاً .. عصر الترجمة
وتمثل العلوم في أيام المأمون .. أم يبدأ في عصر
الأمويين ؟ ..

اذا كان هذا السؤال مشروعاً في حقل
تاريخ العلوم .. فأظن أنه يكون أشد إلحاحاً في
حقل تاريخ الطب .. من هـم أطباء العصر
الأموي ؟ وما هي مصادر معرفتهم ؟
وكيف كانت حالة الطب في حاضرة بني
أمية ؟ في البلاط .. في الأيرة ، وعند العامة ..

ثانياً - كيف كانت حالة الطب عند سكان
بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي .. وما هو
التطور الذي طرأ عليها بعد الفتح ..؟

ثالثاً - من هم الاطباء « السريان » الرواد
في العصر الأموي ؟ وما هو مستوى المعرفة
الطبية لديهم ؟ وما هي كتبهم ؟ ..

وما هو مدى اطلاع الباحثين اليوم على
التراث المكتوب « بالسريانية » ..

رابعاً - ألا يحق لنا أن نتساءل هل يمكننا
أن نبحث في التراث الطبي السرياني عن بدايات
احتكاك العرب بالحضارة والعلم الشاميين ؟ أم
أن العلم والحضارة في بلاد الشام أبان الفتح
وفي العصر الأموي كانا يونانيين حصراً ..

وهكذا .. ما أكثر الاسئلة التي تدور في
خاطر مؤرخ الطب ..

إنني اذا أردت أن أسوق لحضراتكم مثلاً
من حقل طب العيون .. فأنني أتساءل .. أين

يبدأ النفوذ اليوناني على حنين بن اسحق في كتابيه اللذين خلفهما في هذا الحقل ؟ وأين ينتهي هذا النفوذ ؟ ثم أين يبدأ النفوذ السرياني ؟ وأين ينتهي أيضا ؟ •

وما هو دور يوحنا بن ماسويه في حقل التأليف في طب العين بالعربية ؟ وما هي حقيقة أهمية كتابه الذي لا تستطاع قراءته اليوم بالعربية •• بل ينبغي للباحث أن يقرأ ترجمته اللاتينية ؟

هذه أسئلة •• أمثلة •• وما أكثر الأمثلة •• وإذا كنت قد حصرت الحديث الآن في عصر الترجمة •• فانما أحصره في البدايات •• متى بدأ هذا العصر فعلا •• ومتى ازدهرت الترجمة فعلا ؟ وكيف بدأ التمثل •• ؟

وهذه الاسئلة تسوقنا الى عصر الازدهار وما أكثر الاسئلة •• في هذا الحقل أيضا •• ويكفي أن نعرف اننا لم ندرس ولم نحقق ولم ننشر معظم تراث هذا العصر •• الذي نعرف ، عن وجوده في مكتبات المخطونات المختلفة •• ويكفي أن نعرف هذا لكي نحكم بأن معرفتنا عن هذا العصر ما تزال ناقصة كثيرا •

بل يكفي أن نعرف أن ما فقد من تراث هذا العصر •• يزيد كثيرا عن التراث الذي بقي بين أيدينا يكفي أن نعرف هذا لكي نوقن أننا سنظل الى فترة طويلة عاجزين عن تفهم حقيقة هذا العصر • وحقيقة مستوى الطب فيه • وبالتالي عن اعطاء أحكام عامة حوله • وربما كان من المؤلم أن أسوق مثلاً آخر •

فقد ذكر الأب سباط في كتابه عن المكتبات الخاصة في حلب مجموعة من الرسائل التي كتبها الرازي تتعلق بطب العيون • وبالعودة الى المراجع والمصادر الضرورية ، وبمقارنتها بما أورده البيروني وابن أبي أصيبعة عما كتبه الرازي يتبين لنا أن مخطوطات حلب هذه هامة جدا •• لأنها تتطرق الى مسائل في علم غرائز العين وعلم البصريات العينية •• لا نجدها في كتاب الحاوي وبمعنى أدق فإن هذه الرسائل ضرورية لمعرفة آراء الرازي في غرائز العين وكيفية الرؤية • أي أن هذه الرسائل تغطي جانبا من المعرفة الطبية عند الرازي لا نستطيع أن نتعرفه باطلاعنا على كتاب الحاوي أو على مخطوط « المنصوري » فأين هذه المخطوطات اليوم •• ان هذه المخطوطات لم تعد موجودة بل ان المكتبات الخاصة التي أشار اليها الأب سباط اختفت •• فهل ترى •• فاجأ بها وقد استقر بها المطاف في مكتبات بعض جامعات العالم •• بعد أن بيعت سراً ؟ أو أنها وقعت بين أيدي تجار الآثار الذين أخفوها عن عالم العلم والمعرفة الى أمد لا يعرف مداه إلا الله • ؟

ان مخطوطاتنا وكنوز تراثنا لم يدمرها التتر •• فحسب •• ولا الجهل فحسب •• بل هذه التجارة غير المباركة أيضا •

وإذا كان لا بد لي من الانتقال الى عصر الانحطاط •• فان سيل الاسئلة لا ينتهي •• متى بدأ عصر الانحطاط •• ؟ وهل نعرف كل شيء عن القرون الميلادية الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر لكي نختار على مداها تاريخاً

لبداية الكتب التي كتبت في هذه القرون ؟ في
الطب وفي العلوم الاخرى •

وهل درسنا دراسة كافية الانحطاط
السياسي والاقتصادي والاجتماعي وعلاقته
بتدهور العلوم والفنون في هذه القرون ؟ •

واذا أردنا أن نركز على القرن السادس
عشر على سبيل المثال •• واخترنا من بين أعلام
هذا العصر : داود الانطاكي الضرير صاحب
التذكرة • وقعنا بدراسة لما ورد في هذه التذكرة
ولما كتب حولها من دراسات وتعليقات وخاصة
في حقل العقاقير •• فهل نستطيع متابعة ما كتب
عن كل عقار من عصر ابن البيطار مثلاً الى عصر
الانطاكي ؟ وهل نستطيع معرفة كيفية دخول
الأدوية والاعراضات شبه السحرية الى هذا
الكتاب •

وهل درسنا ظاهرة اقتران مهنة الطب في
ذلك العصر بمهنة رجل الدين ؟ •

وهل درسنا تأثير التغيرات الاقتصادية
الاجتماعية التي أصابت المجتمع العربي في العصر
العثماني وقبيل ذلك في عهود انعدام الاستقرار
السياسي في مهنة الطب وفي تجارة الادوية • ؟

اننا نعرف ان سقوط بغداد قد أدى الى
هجرة بعض الاطباء الى بلاد الشام •• وقد أدى
هذا بدوره الى ازدهار ما في مهنة الطب في
الشام • فهل كانت الظروف السياسية والاجتماعية
واسعة التأثير أم قليلة على التدهور العلمي
والطبي في بلاد الشام ؟ •

وكيف كانت الحال بالمقارنة مع ما كان

عليه الحال في مشرق البلاد الاسلامية وفي المغرب
العربي ؟

انني لا أود أن أطلق الاحكام المرتجلة أو
أو المتجزأة على مستوى ظروف الطب في هذا
العصر • قبل أن نتاح لنا قراءة الوثائق الطبية
المتعلقة بهذا القرن •

فاذا استعرضنا المخطوطات الطبية التي
كتبت في هذا العصر • نجد نقصاً بادياً في عدد
المؤلفين فبالإضافة الى داود الانطاكي • لا نكاد
نجد الا مؤلفين كبيرين اثنين : الامام السيوطي
والامام السويدي •

كما اننا نلاحظ ان اهتماماً كبيراً بدأ يصرف
في اتجاه التوفيق بين بعض الاحكام الطبية
والاحكام الفقهية • فأئمة الطب يشغل بالهم في
هذا العصر ، هل تنقض السوائل التي تنز من
الجرح مثلاً وضوء المتوضيء أم لا ؟

ونلاحظ أن كتب الأعشاب بدأت تستغني
عن بعض الاعشاب أو العقاقير التي يصعب العثور
عليها بسبب بعد موطنها •

اضافة الى تفشي ظاهرة الأدعية وكتابة
« الحجاب » وبعض الاشكال شبه السحرية في
كتب الطب • حتى أصبح الطبيب في هذا العصر
نوعاً من « الطبيب الكاهن » الذي نعرفه في
العصور البدائية لتطور الطب قبل عصر التدوين •

ان مجرد عودة سريعة الى المراجع المتوفرة
بين أيدينا • تثبت لنا فقر مكتبة المراجع العربية
الى كتاب شبيه بكتاب ابن أبي أصيبعة • وان
عدم توفر مثل هذا الكتاب بين كتب التراجم

أم الى غياب الكتب الكبرى التي أخذ عنها داود بسبب صعوبة استنساخها أو ضياعها بعد عصر حريق مكتبة بغداد .. واضطراب الظروف السياسية والاجتماعية ؟ •

إن طريق دراسة طب العيون عند العرب أصبحت ممهدة بفضل العمل العظيم الذي قام به هيرستبرغ والذي يدو حتى الآن فريداً من نوعه في تاريخ الطب • هذا العمل الذي مكن مايرهوف ثم سباط وكيندي وود من انجاز أعمالهم التي يمكن اعتبارها تكميلية .. في هذا الحقل • وعلى هذا فان المعلومات المتوفرة لدينا تشير الى انقطاع التأليف في هذا الحقل في القرن السادس عشر واقتصار ممارسة طب العيون على الأطباء غير المتخصصين على تقيض ما كان عليه الأمر في عصور ازدهار الطب العربي بل منذ البداية •

كذلك فان ممارسة جراحة الكسور (التجبير) قد توقفت تطورها واقتصرت رغم انتشارها الواسع في أوساط معينة وأسر طبية توارثت ممارسة هذه المهنة والاحتفاظ بسرها فعادت مهنة الطب القهقري • وغاب الاساتذة الكبار الذين كنا نراهم حتى عصر ابن النفيس في البيمارستانات يدرسون تلامذتهم ويشرفون على معالجتهم للمرضى •

وكذلك فان تجارة الأدوية والأعشاب المستعملة في الطب قد اقتصرت على شكل بسيط من أشكال « العطارة » مشيرة الى توقف تطور علم الصيدلة الذي انفصل عن علم الطب وتطور تطوراً باهراً على أيدي العرب في عصر الازدهار •

المتأخرة يجعل مهمة الباحث في غاية الصعوبة .. اذا ما قورنت بمهمة الباحث في العصور التي أرخ لها ولأطبائها ابن أبي أصيبعة العظيم •

ان انحسار ممارسة مهنة الطب وغياب المدارس الكبرى التي عرفناها في العصرين المملوكي والأيوبي ، وقلة عدد المؤلفات الطبية وتضاؤل عدد الاعشاب المستعملة في المعالجة الطبية ، توحى فعلاً بأن عصور انحطاط الطب قد بدأت في حوالي نهاية القرن الثالث عشر .. وتضعنا أمام السؤال التالي .. :

هل كان ابن النفيس هو آخر أعلام عصر الطب الذهبي العربي ؟ وهل كانت مشافي القاهرة هي آخر المدارس الطبية الكبرى التي خلّفت لنا تراثاً مكتوباً ؟ •

اننا لو عدنا الى ما يسمى الآن بالطب الشعبي .. لنرى مدى تأثيره بالمؤلفات الطبية والوصفات المنتشرة بين أيدي العاملين في هذا الحقل .. وبحسنا عن أصلها وحاولنا أن نعرف مصدرها .. أمن كتب عصر الازدهار هي أم من الكتب المتأخرة ؟ لفوجئنا بالنفوذ الكبير الذي تتمتع به تذكرة داود الانطاكي على الوصفات والعقاقير المستعملة في الطب الشعبي اليوم •

ولكن الدراسة الأدق لا تلبث أن تكشف لنا ان عقاقير القرن السادس عشر ليس فيها جديد بالنسبة الى العقاقير المستعملة منذ القرن الحادي عشر •

فلماذا اذن انتشرت تذكرة داود ؟ أيعود ذلك الى تأخر عهدها ؟ أم الى كونها مختصرة ؟

المكتوبة ••

فنحن اذن أمام ظاهرة « التراث المنحط »
بأجلى معانيها •

وعلى كل حال فانه يخيل إلي •• انه يتعذر
علينا أن نتحدث عن « طب شعبي عربي » بل
يجب أن نتحدث عن « تراث طبي منحط » •

إذا كانت هذه الملاحظات الاولى قليلة •••
فإن الأمل كبير في أن دراسة هذا القرن دراسة
أوسع وأشمل وأدق ستتيح لنا إغناء أو تعديل
هذه الملاحظات •

ان السادة المؤرخين مطالبون بتفسير هذه
الظواهر ••• وبالبحث عما اذا كانت الظواهر
نفسها مرئية في تطور العلوم الاخرى في هذا
العصر •

وان غياب هذه المدارس وانحصار المهنة
أزال ظاهرة « تجانس المعرفة » الطبية على طول
البلاد وعرضها •• كما كان عليه الأمر في عصر
الازدهار ••• فان العقار الذي يوصف في منطقة
من بلاد الشام لا يوصف في غيرها •••

ويبدو لي ان هذه الظاهرة لم يستفحل
أمرها في بعض المناطق ••• بسبب توفر المراجع

